الحلقة (٦)

في هذه الحلقة سنكمل ما توقفنا عنده عند الحديث عن نكبات المكتبات أو ما حدث للتراث الإسلامي المخطوط في الماضي وأيضا في العصر الحديث الذي لم نشر إليه، وهو ما سنكمله في هذه الحلقة.

كنا قد أسلفنا الحديث عن دور التتار في إتلاف الكثير من حضارة المسلمين، أولئك الذين اكتسحوا العالم الإسلامي من شرقه إلى حدود الشام، وكذلك ما حدث في الأندلس حيث أحرق فيها ما قُدّر بمائة ألف جمعت في ميدان وأحرقت بعد أن أخرج المسلمون من الأندلس آنذاك.

العوامل التي أضرت بالتراث الإسلامي:

١.ما كان من صراعات في العالم الإسلامي نفسه.

٢.الضعف العلمي وانتشار الجهل وعدم الاهتمام بهذه الثروات العلمية أفقدها قيمتها بحيث بيع منها الكثير على الغربيين ونقلوها إلى بلادهم.

٣. ما حدث إبان الحروب الصليبية حيث اكتشف أولئك أهمية هذه العلوم في نهضة المسلمين وتقدمهم، وقد كانت أوروبا تتعرف على الحضارة الإسلامية من ثلاث قنوات (قناة المعرفة - قناة التجارة - قناة الحرب)، وقناة المعرفة كانت عن طريق الأندلس وكان أبناء الغرب يدرسون في تلك الجامعات وينقلون معهم ما استطاعوا من التراث الإسلامي.

والقناة الثانية التي انتقلت أو عبرت من خلالها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا كانت عن طريق صقلية وجنوب ايطاليا حيث التجارة المزدهرة آنذاك، وحيث تأثرت الإمبراطورية البيزنطية بالدولة الإسلامية، حيث كان تقليد الإمبراطور البيزنطي للخليفة العباسي في بغداد في تشجيع العلم وفي استئصاله والبذل فيه.

وكانت القناة الثالثة التي عبرت منها الحضارة الغربية وبتوسع في إبان الحروب الصليبية التي امتدت لقرنين من الزمان واكتشف من خلالها عامة أوروبا هذه الحضارة الإسلامية ونقلوا الكثير من تراثها ومن عطائها ومن إنتاجها ومصنوعاتها.

هذه الثلاث قنوات عبرت منها الحضارة الإسلامية إلى الحضارة الغربية، والشاهد هنا أن الملوك الصليبيين اكتشفوا هذا التراث الإسلامي، حرصوا على نقله والاستفادة منه فأخذوا ما استطاعوا من تلك المخطوطات، ثم لما جاء العصر الحديث عصر الاستعمار نُهب الكثير من مخطوطات العالم الإسلامي وأُودعت في البلدان الغربية، ولازالت تتسرب المخطوطات إلى يومنا هذا، ومعروف أن

كثيراً من العلماء يحرصون على اقتناء المخطوطات، وإذا مات العالم فقد تباع في المكتبة وتتسرب وتنقل إلى خارج البلدان الإسلامية إلى البلدان الغربية.

هذه عدة عوامل أسهمت في تبدد وإتلاف واغتراب المخطوطات الإسلامية الكثيرة، ومع ذلك فلا زال يوجد منها الكثير، منها المفقود، ومنها الموجود في حوزة الأمة، ومنها ما هو في حوزة غيرها، وهذا الموجود منه ما نشر وحقق وظهر للنور، ومنه ما لم ينشر وهو كثير جداً.

تُقدر المخطوطات في مكتبات أوروبا وأمريكا بمائة ألف مخطوط عدا مكتبات المستشرقين والأفراد ونحوهم، وتتوزع في عدة دول أوروبية من أهمها انجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنمسا والسويد، هذه أشهر البلدان التي توجد فيها مخطوطات إسلامية مما أُخذ من البلدان الإسلامية في العصر الحديث، والآن هناك محاولات لإجراء رصد لهذه المخطوطات، ومن الكتب التي اعتنت بذلك كتاب "لمحات في المكتبة والبحث والمصادر" لـ محمد عجاج الخطيب هذا الكاتب أفرد للمكتبات التي تضم مخطوطات عربية في أوروبا وأمريكا أفرد فقرة في كتابه تحدث فيها، حيث أشار إلى أنه يوجد في تلك المكتبات نحو مائة ألف مخطوط عربي على أقل تقدير سوى ما في مكتبات المستشرقين وأساتذة الجامعات وما في أيدي الناس ممن له عناية بالمخطوطات العربية والآثار الشرقية.

وبداية الاهتمام بالمخطوط العربي كانت في القرن العاشر الميلادي إبان الحروب الصليبية، حيث اهتموا بهذه العلوم وحرصوا على اقتنائها ونقل الكثير منها، يشير الكاتب إلى أن لويس التاسع ملك فرنسا عام ١٢٢٦م -١٢٧٠م وهي فترة وجوده، يقول لما عاد من الحروب الصليبية نقل معه من مدينة دمياط مخطوطات عربية وقبطية زين بها خزائن قصره، واحتذى حذوه كثير من أمراء الفرنسيين والأغنياء الذين رافقوا الملك في زيارته الأماكن المقدسة، وقد كان للأندلس الفضل الكبير في نقل العلوم الإسلامية إلى أوروبا.

معهد المخطوطات العربية:

نظراً لأهمية هذا التراث فقد انتبه العرب والمسئولون في الأمة العربية إلى أهمية استعادة هذا التراث وصيانته وحفظه والعناية به، فأنشؤوا من أجل ذلك مؤسسة تابعة لجامعة الدول العربية تدعى "معهد إحياء المخطوطات" هذا المعهد يسعى على عدة مستويات لحفظ هذه المخطوطات والعناية بها والتعريف بها ونحو ذلك.

ومن آليات المعهد :

جمع المخطوطات من العالم، فلا يمكن استعادة المخطوطات لأن أهلها يمتلكونها الآن، وإنما تستعاد **عن طريق التصوير** إما التصوير الورقي أو التصوير على المكروفيلم والحصول على هذه الصور من المخطوطات، والآلية الثانية **هي إصدار نشرات متتابعة** يبين فيها ما يستجد في عالم المخطوطات

وما يحصل منها وما يكتشف منها، الآلية الثالثة **هي تحقيق بعض المخطوطات أو المساعدة على تحقيقها** كمساعدة الباحثين الراغبين في تحقيق مخطوطة معينة عن طريق مثلاً إمدادهم بصور المخطوطة أو نحو ذلك.

ومعهد المخطوطات ليس هو الوحيد، فبعض الدول اعتنت بهذا الجانب لاسيما المجامع العلمية أو مراكز البحوث والجامعات، فمثلاً في المملكة العربية السعودية نلاحظ عناية كبيرة جداً بالمخطوطات مثل "مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية" لديه قسم خاص بالمخطوطات يجمعها من أنحاء العالم وتفهرس وتصنف، ولديه قسم للعناية بالمخطوطات تجليدا ووقاية لها من التلف ومعالجة ما تلف منها بآلية متطورة ومتجددة دائماً، لما لدى المركز من إمكانات كبيرة، ويمكن للباحثين الاستفادة عن طريق الاتصال بالمركز.

كذلك من المؤسسات التي سبقت للعناية بالمخطوطات في المملكة العربية السعودية "جامعة الإمام محمد بن سعود" لها جهد في حرصها على اقتناء المخطوطات بأنواعها سواء مخطوط مصور أو كتابة أو مكروفيلم، فقد جمعت الكثير من هذا الجانب، وكان اهتمامها منذ القدم من قبل أن تصبح جامعة عندما كانت كليات ومعاهد علمية، وثم لما تكونت جامعة أُنشئت عمادة شؤون المكتبات وخصص قسم في المكتبة المركزية للعناية بهذه المخطوطات، فلديها مخطوطات نادرة، كما أن لديها كما هائلا من هذه المخطوطات، وقد عملت عمادة شؤون المكتبات في الآونة الأخيرة مشكورة على تحويل هذه المكتبات إلى الطريقة الرقمية بحيث يسهل إيصالها إلى الباحثين ويسهل عليهم الإطلاع عليها.

وأيضاً من ضمن هذه الجامعات جامعة الملك عبد العزيز وجامعة أم القرى والجامعة الإسلامية وغيرها، وقد أسهمت هذه الجامعات في نشر التراث المخطوط في العالم الإسلامي إسهاماً كبيراً عن طريق الرسائل العلمية على وجه الخصوص، فتسجيل الباحثين في رسائلهم في موضوعات أو في مخطوطات أسهم في تحريك التراث وفي إعادة نشره وإخراج كنوزه بشكل مدقق ومحقق علمياً، وقد كان في فترة من الفترات المخطوطات تخرج بشكل تجاري ليس بشكل تحقيق علمي دقيق، وهذا أساء إلى التراث، فقد يخرج منقوصاً وقد يخرج مشوهاً وبه أخطاء كثيرة، لكن مع إخضاع التحقيق للأصول العلمية، ودخوله ضمن الرسائل العلمية والبحوث أصبح يخرج بصفة وبطريقة مدققة ومحققة ومفيدة للباحثين فائدة كبيرة، ولذلك أقول أن هذه الجامعات الإسلامية أسهمت إسهاماً كبيراً في نشر التراث والوعي به والاستفادة منه واستثماره من جديد بعد أن كان في هذه الأرض محفوظاً.

إضافة إلى هذه المؤسسات يوجد على شبكة الإنترنت مواقع تعنى بالمخطوطات، وتعين الباحثين على الإطلاع على المخطوطة والتواصل في هذا المجال، بل والحصول على نسخ منها، هذا بالإضافة أن الجامعات لها مواقع على الإنترنت، وعن طريق موقع الجامعة يمكن الاتصال بعمادة شؤون المكتبات والحصول على ما يراد من هذه المخطوطات.

القيمة العلمية للمخطوط:

أولاً المخطوطات بشكل عام: هي مهمة لأنها حفظت تراثنا الإسلامي فهي نتاج أولئك العلماء الذين اجتهدوا وبذلوا وجمعوا وكتبوا، فهي لا شك مفيدة لأنها ذاكرة الأمة العلمية التي رصد فيها كل عطاء أولئك العلماء، فهذه هي أهمية المخطوطات بشكل عام، وهي التي وجهت لها الاهتمام والعناية الكبرى من قبل الأمة الإسلامية بمختلف مؤسساتها وجامعاتها ومكتباتها ومازالت العناية تبذل.

ثانياً المخطوط بعينه أو (بذاته): المخطوطات ليست على حد سواء في الأهمية، فيمكن النظر إليها من عدة جوانب، فهي تتفاوت بحسب الموضوع، من المخطوطات ما يكون ثميناً جداً بما فيه من معلومات لا تتوفر في غيره، وبعض المخطوطات يوجد منه نسخ كبيرة جداً فلا تبقى أهمية هذه المخطوطة إلى مثل تلك المخطوطة التي تقل نسخها وتعظم قيمتها، بل قد لا يكون في العالم إلا نسخة واحدة منها، الأمر الآخر أن الموضوع من جهة أخرى قد لا يكون أهميتها من حيث توافرها؛ لكن قلة أهميتها من حيث أن الموضوع الذي كتبت فيه ليس موضوعاً مهماً، قد يكون تكراراً، وقد يكون موضوعا هامشيا قليل الأهمية جداً، إذن ترتبط أهمية المخطوطة بالتالي:

أولاً بالقيمة العلمية لهذا المخطوط فكلما كانت القيمة العلمية أعظم كلما كانت قيمة المخطوط أكبر.

ثانياً بالنسبة لوجود المخطوطة فقيمة المخطوطة المتوفرة ليست كقيمة المخطوطة النادرة.

ثالثاً من حيث التاريخ من المعلوم أن المتقدم تاريخياً أي ما كتبه المؤلف في عصره أو قريباً من عصره تتفاوت، فكلما توفرت نسخة المؤلف كان أفضل وكانت القيمة أعلى، وكلما نزلت زمنياً كلما نزلت قيمتها في الغالب.

رابعاً من الناحية الكتابية قد يكون في المخطوطة سقط كبير أو رداءة في الخط وقد تكون أخرى مكتوبة بدقة ووضوح.

خامساً من ناحية توثيق العلماء لها فقد تكون هذه المخطوطة قرأت على مجموعة من العلماء فوثقوها وأدلوا بشهاداتهم عليها.

إذن قيمة المخطوط تتفاوت من عدة أوجه، فقد يكون مهماً من هذا الجانب في حين أن غيره أهم من جانب آخر.

المقصود بالمخطوطة: هي الكتب التي أُلفت وكتبت قبل عصر الطباعة، وليس ما خط أو ما كتب بخط اليد مهما كان، لأن ما كتب بخط اليد قد يكتب في هذا اليوم أو في هذا العصر ويعتبر مخطوطا بمعنى مكتوبا بخط اليد، لكن ما يراد بالمخطوط الذي يُسعى لتحقيقه ونشره هو ما كان قبل عصر الطباعة.

الهدف من تحقيق المخطوطة هو إخراج النص سليماً كما كتبه مؤلفه لأن المؤلف إذا كتب كتاباً يستهدف بيان معلومات معينة بطريقة معينة، فهدف التحقيق إخراج النص سليماً كما كتبه مؤلفه

بقدر الاستطاعة، وهذا يتطلب أن يخرج النص وأن يعلق عليه.

- **خطوات العمل في المخطوطة:**

١.**اختيار المخطوطة:** لابد لمن يريد اختيار مخطوطة لابد أن يكون من أهل الاختصاص، فسيكون عليه اختيار مخطوطة من اختصاصه، فإن كان من أهل الحديث أو الفقه أو التفسير أو كان من الأدب أو النحو أو أي فن من فنون الحضارة الإسلامية، لأن المتخصص حينما يحقق النص يكون تحقيقه في الغالب جيداً لأنه عارف أو من أهل العلم، والتحقيق ليس فقط إخراج نص بدون وعي، فلابد أن يتوفر فيمن يريد أن يحقق النص: الوعي والتخصص والعلم بموضوع أو مجال هذا الكتاب أو المخطوط.

٢.**أن يكون ملماً وعارفاً بقواعد التحقيق:** فإن لم يكن عارفا لم يأتِ عمله وفق الأصول.

٣.**أن يكون عارفاً باصطلاحات المتقدمين في التحقيق:** فكما أن لدينا مناهج بحث واصطلاحات معينة في العصر الحاضر كالفاصلة والفاصلة المنقوطة والشرطة إلى آخره من علامات الترقيم، فقد كان هناك علامات معينة تقابل علامات الترقيم الحديثة يستعملها الذين يكتبون آنذاك.

٤.**أما الأمور الأخرى التي قد يحتاجها المحقق في التثبت من مخطوطة فقد يستعين بغيره من المختصين** كالمختصين في الخطوط والورق والأحبار ونحوها للتحقق من مدى وجود هذا المخطوط بالفعل بحسب التاريخ المكتوب عليه، فقد يكتب عليه تاريخ ويكون متأخرا وليس من ذلك التاريخ، فالذين لديهم علم بالخطوط والحبر وبالورق ونحوه من الأمور يعرفون إن كان بالفعل من ذلك التاريخ أو أن التاريخ غير صحيح.

هذه بعض الشروط التي تلزم من يريد التحقيق، ثم إذا كانت هذه الشروط قد توفرت فيه فسينتقل نقلة أخرى، ولنفترض أنه تخصص في فن من الفنون عليه أن يسعى لاختيار مخطوط مناسب لكي يحققه، مثلاً من شروط المادة المحققة ألا يتكرر تحقيقها، فلا فائدة من تكرار العمل وإضاعة الجهود فالمفترض أن يبدأ الإنسان عملاً جديداً يستفيد منه هو يستفيد الآخرون بدل التكرار.